Arabian Gulf Journal of Humanities and Social Studies

ISSN: 3080-4086

الإصدار السادس - العدد السادس عشر || تاريخ الإصدار 2026-07-20

القضايا المجتمعية في مقامات العصر العباسي

Social Issues in The Maqamat of The Abbasid Era

عتاب ياسر حمد الله

Itab Yasser Hamdallah

دراسات عليا (ماجستير) - قسم اللغة العربية-كلية الآداب – جامعة ذي قار

أ .م. د خالد عبد العزيز محسن

Asst. Prof. Dr. Khalid Abdul-Aziz Muhsen

استاذ مساعد الأدب العربي في قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة ذي قار

DOI: https://doi.org/10.64355/agjhss61643

مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية || هذه المقالة مفتوحة المصدر موزعة بموجب شروط وأحكام ترخيص مؤسسة المشاع الإبداعي(CC BY-NC-SA)

الملخص:
خلص هذا البحث إلى أن المقامات لم تكن مجرد نصوص أدبية تقوم على السجع و البلاغة و المحسنات البديعية و الإمتاع فقط , بل كانت مرآة صادقة للمجتمع العباسي حيث عالجت العديد من القضايا الاجتماعية و كشفت لنا عن أحوال الناس و سلوكهم و عاداتهم . فقد تناولت المقامات ظاهرة الفقر و الغنى , التسول و الكدية , والبخل, و الطمع ,و الاحتيال و غيرها من الظواهر الاخرى .

كذلك سلطت الضوء على العلاقات الاجتماعية , و أثر الأخلاق في تماسك المجتمع , إلى جانب نقدها للفساد الإداري و استغلال النفوذ و السلطة من اجل المصالح الشخصية. فأن كتاب المقامات لم يكتفوا بوصف هذه الظواهر فقط بل اتخذوا منها وسيلة من اجل الإصلاح و التوجيه , فقد قدموا نقداً اجتماعياً يقوم على السخرية و الإقناع . و بذلك نرى أن المقامات قد أسهمت في تصوير الواقع الاجتماعي للعصر العباسي , و الدعوة إلى ترسيخ القيم الإنسانية و الأخلاقية , هذا مما يؤكد أن وظيفتها تجاوزت حدود الإمتاع الأدبي لتؤدي دوراً اجتماعياً فاعلاً.

الكلمات المفتاحية: المقامة في العصر العباسي، الكدية، نقد السلوكيات، التنوع العرقي، القضايا المجتمعية في العصر العباسي.

Abstract:

This study concludes that the **maqāmāt** were not merely literary texts characterized by rhymed prose (*sajʿ*), eloquence, rhetorical embellishment, and entertainment; rather, they served as an authentic reflection of Abbasid society by addressing numerous social issues and revealing the conditions, behaviors, and customs of its people. The maqāmāt examined such phenomena as poverty and wealth, begging and mendicancy (*kadiyyah*), miserliness, greed, fraud, and other prevalent social practices.

The study also highlights the portrayal of social relationships and the role of moral values in maintaining social cohesion, while demonstrating how the maqāmāt criticized administrative corruption and the abuse of power and authority for personal gain. The authors of the maqāmāt did not merely describe these social phenomena; they employed them as a means of reform and moral guidance by presenting social criticism through satire and persuasive discourse.

Accordingly, the maqāmāt made a significant contribution to depicting the social reality of the Abbasid era and promoting humanitarian and ethical values. This confirms that their function extended beyond literary entertainment to fulfill an active social role.

Keywords: Maqāmāt in the Abbasid Era, Mendicancy (*Kadiyyah*), Critique of Social Behavior, Ethnic Diversity, Social Issues in the Abbasid Era.

المقدمة

شهد الادب العربي في فتراته الزمنية الواناً فنية وادبية مختلفة ،من ناحية الشعر وكذلك النثر وهذا ما يخص بحثنا منها ما بقي شاهداً على منجزات عصره واستفاد منه الغير وبقي يثري في التعبير والانتاج ومنها ما عصفت بهِ ريح الزمن وتراكم الايام وبقي على هيئة تاريخ يحسب على الاجناس الأدبية لكن الأدب شأنه شأن غيره من الفنون اصابته موجة الحداثة والابتكار فأحيانا نراه في شكل مقامات النثر والسرد المنمق بالسجع والبديع او يشرح حالة ما او وصفاً لزمن معين فيه كل اركان الحديث من شخوص أو معتقدات أو عمران فالتغييرات التي تشهدها العصور الادبية والانفتاح الحاصل على الامم والثقافات الاخرى، فالناظر في النثر يرى الانتقال الذي حدث من فنون الخطابة وسجع الكهان في العصر الجاهلي الى الخطابة في العصر الاسلامي، ومن ثم فنون التوقيعات والرسائل وصولاً الى المقامات، كل هذا يدل على التغييرات الأدبية في خارطة الأدب العربي ظهوراً او اختفاءً، ولعل المتغيرات المختلفة تتحكم بطبيعة هذه الظهور والاختفاء.

لقد كان التحول البنيوي في العهد العباسي الثاني في النسيج العربي والإسلامي، حيث تمازجت الثقافات، وبرزت طبقات اجتماعية جديدة، وتلاقت ثقافات، وتصادمت اللغة والمصطلحات، وبرزت طائفة جديدة من الكلمات.

لم تكن المقامات التي ابتكرها الهمذاني و طوّرها الحريري مجرد موسيقى لغوية وترف بياني، بل كانت هي المرآة التي تعكس حالة المجتمع والمزاج الطاغي في عصره والواقع الذي كانت تعيشه الأمة، لأجل ذلك كانت وسيلة التعبير التي أوصلت إطاراً عاماً عن حياة الناس الذين عاشوا خلال هذه الفترة، وكيف عاشوا، بتواصلهم، بتناقضاتهم، بجلساتهم، وبحلهم وترحالهم.

المقامة لغة:

ورد مصطلح المقامة في لسان العرب لابن منظور: ((المقامةُ: الموضع الذي تقيم فيه. والمُقامة، بالضم: الاقامة. والمقَامة، بالفتح: المجلس والجماعة من الناس، قال: وأما المقَام والمقُام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام))[1]

وجاءت كلمة المقامة في المعجم الوسيط كذلك، فنجد المقامة: ((الجماعة من الناس - والمجلس. و - الخطبة او العظة او نحوهما و - قصة قصيرة مسجوعة تشتمل على عظة أو ملحة، كان الأدباء يظهرون فيها براعتهم . المقام: الإقامة. و - موضع الإقامة. (المقامة): المقام.))[2]

اصطلاحا:

تُعرَّف المقامةُ عند سمير محمود الدروبي محقق كتاب مقامات السيوطي بأنها ((نص أدبي مسجوع ومرصع بالمحسنات البديعية، وغير مقيد بطول معين يتعاطاه الكاتب لإظهار براعته وتفوقه أو لأبداء رأيه في قضية ما، أو لا تخاذه ستاراً للتعبير عن نزعاته الظاهرة أو المكبوتة، أو للدلالة على مكانته ويتخذ النص المقامي صورة: الحكاية أو المأدبة أو المقالة أو العظة))[3]

ويُعرفها عبد العزيز عتيق بانها : ((قطعة من النثر الفني على صورة حكاية قصيرة تنتهي في مغزاها إلى عبرة أو عظة أو طرفة، يرويها شخص واحد خيالي لا يتغير، هو عيسى بن هشام عند بديع الزمان، وهو الحارث بن همام عند الحريري. وبطل كل حكاية شخص خيالي آخر أيضاً، وهو أبو الفتح الإسكندري في مقامات بديع الزمان، وهو أبوزيد السروجي في مقامات الحريري. وأبرز صفات البطل في مقامات هذين الاديبين هي: البلاغة والفصاحة، وحلاوة النادرة، وسرعة الخاطر، وسعة الحيلة والكدية، أي الالحاح في الاستجداء وسؤال الناس.))[4]

ويمكن القول إن المقامات استطاعت أن تعالج القضية المجتمعية وتُوصل رسالة عبر الأجيال عن ماهية الحالة العامة للمجتمع في ذلك الوقت. أن أغلب النصوص الأدبية تكاد لا تخلو من القضايا المجتمعية، وقد يختلف وضوح الصورة وصدقها بأختلاف الظروف والأحوال التي نشأت في ظلها، أو الثقافة التي تنشأ في ظلها، أو السياسة، والأدب استطاع إلى حد ما أن يخفي بين سطوره قضايا اجتماعية مهمة من خلال صورة المجتمع، كذلك ينقل لنا حياة الناس وعاداتهم وصفاتهم.[5]

ويقال إن المقامات أخذت أطاراً قصصياً من وحي الظروف الاجتماعية التي خلقتها الطبقة الحاكمة والطبقة البرجوازية الإسلامية العربية، فهي تصور واقع المجتمع العربي والإسلامي في مرحلة تأريخية خطيرة، لأن الزمن الذي عاش فيه البديع والحريري وطبقة الأدباء الذين تبنوا هذا اللون من الأدب كان عصراً عصيباً مشحوناً بلون من القلق وعدم الركود، فكان عصراً فيه خليط من الحروب والمكائد والفتن والثورات الداخلية، وكان دور المقامات هو عكس صورة واضحة وصادقة ومعبرة عن حالة المجتمع وقيمه الأخلاقية والسياسية والثقافية في هذه الحقبة من الزمن، بحيث لم يبلغ في مستواها فن نثري اخر من رسائل أو خطب، في رسم هذه الصورة للعهد، فكانت المقامات المرآة الصادقة للحياة الاجتماعية والركود الاقتصادي.[6]

تناول البديع في كتابهِ المقامات قضايا القتل والتدمير والنهب، حيث ذكر اللصوص والمجرمين وقطاع الطرق، ولعل خير مثال على تردي أوضاع عصر الهمذاني وانعدام الأمن فيه هو ما ذكره في (المقامة الأسدية)، حيث وصف جيلاً غريباً من اللصوص، مجموعة من الشبان أصحاب منظراً حسناً وماهرين في الرماية والصيد. [7]

---

(1) لسان العرب، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري ، 1425م، المجلد 12، 498.
(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات واحياء التواث، جمهورية مصر العربية، ط4، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، مكتبة الشروق الدولية: ٧٦٨.
(3) شرح مقامات جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١، تحقيق: سمير محمود الدروبي، ج1، ط ١، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م، مؤسسة الرسالة، بيروت،٤٢-٤٣-44.
(4) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م، ص: (٤٧٧-٤٧٨) .
(5)ينظر: المقامات في الأدب العباسي، د.أماني عبدالله،1976 م ، ص: 1-9.
(6) ينظر: شرح المقامات للشريشي، الجزء الأول، ص 273.
(7) يُنظر: فن المقامات في الأدب العربي، عبد الملك مرتاض، ص 165.

يقول فيها على لسان عيسى بن هشام: ((إلى أن اتفقت لي حاجةٌ بحمص. فشحذت إليها الحرص. في صحبة افراد كنجوم الليل. أحلاس لظهور الخيل... عن لنا فارسٌ وفصمدنا صمده. و قصدنا قصده. و لما بلغنا نزل عن حر فرسه. ينقش الأرض بشفتيه. ويلقى التراب بيديه. وعمدني من بين الجماعة فقبل ركابي... ونظرت فإذا هو وجه يبرق برق العارض المتهلل. وقوام متى ما ترق فيه العين تسهل. و عارض قد أخضر. وشارب قد طر. وساعد ملان. وقضيب ريان. فقلت يا فتى ما ألطفك في الخدمة وأحسنك في الجملة، فالويل لمن فارقته. وطوبى لمن رافقته... أريكم من حذقي طرفا. لتزدادوا بي شغفاً. فقلنا: هات فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوق سهماً فرماه في السماء. واتبعه بآخره فشقه في الهواء. وقال: سأريكم نوعاً آخر. ثم عمد إلى كنانتي فأخذها وإلى فرسي فعلاه. ورمى أحدنا بسهم أثبته في صدره. وآخر طيره من ظهره، فقلت: ويلك ما تصنع؟ قال: اسكت يا لكع. والله ليشدن كلَّ منكم يد رفيقه. أو لأغصنَّه بريقة. فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة وسروجنا محطوطة. وأسلحتنا بعيدة وهو راكب ونحن رجالة. والقوس في يده يرشق بها الظهور. ويمشق بها البطون والصدور)).[8]

وملخص المقامة أنه يقابل الواحد منهم جماعة من المسافرين، فيتظاهر بأنه هارب من خدمة سيده لغلظته عليه، ويعرض خدماته، فيلمسون فيه النشاط والحيوية والإخلاص، حتى إذا أنسوا إليه واطمأنوا إلى أمانته عمد إلى الحيلة والخداع، فقتل بعضهم وساقهم أمامه كقطيع الأغنام بعد أن أخذ خيولهم واستولى على أسلحتهم وغنم ما كان بحوزتهم من أموال.

كذلك ما نراه في (المقامة الموصلية) للهمذاني , حيث يتعرض كل من عيسى بن هشام وأبي الفتح الإسكندري للسلب، وكانا قد أشرفا على الموت، فهربوا الى احدى القرى، في الموصل للنجاة بأنفسهم..

فيقول عيسى بن هشام: ((لما قفّلنا من الموصل. وهممنا بالمنزل. وملكت علينا القافلة. وأُخذ منا الرحل والراحلة. جرت بيَّ الحشاشة إلى بعض قراها. ومعي الإسكندري أبو الفتح. فقلت: أين نحن من الحيلة؟ فقال: يكفي الله. ودفعنا إلى دار قلَّ مات صاحبها)).[9]

أراد الهمذاني عكس حالة الفوضى السياسية وقلة الأمن وعدم الاستقرار الاجتماعي حين سقطت بغداد أسيرة الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار.

كذلك يقول في المقامة التميمية:((وليتُ بعض الولايات من بلاد الشام. و وردها سعد بن بدر أخو فزارة. وقد ولي الوزارة. و أحمد ابن الوليد. على عمل البريد. وخلف بن سالم. على عمل المظالم. وبعض بني ثوابة. وقد وُلّي الكتابة... ولم يزل يرد الواحد بعد الواحد حتى امتلأت العيون من الحاضرين وثقلوا على القلوب)).[10]

تعكس المقامة صورة واضحة الجوانب لما كان يحدث في الواقع في العصر العباسي، لاسيما الدولة ووظائفها: الوزارة، والبريد، والمظالم، والقضاء، وتبرز لنا طبيعة السلطة الإدارية، كذلك تصور لنا الوضع العام للمجتمع المسكون بالخوف والفقر والجوع، وتصور لنا مدى الخوف الذي يلحق بالناس.

وفي هذا الإطار من الدراسة والبحث أردنا من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على أهم القضايا التي تخص المجتمع من خلال المقامات، من ظاهرة الكدية إلى الفوارق الطبقية.

1- الكدية: تعتبر الكدية (التسول بذكاء وبلاغة) حالةً اجتماعية كانت سائدة في المجتمع العباسي، وتُعد أيضاً الموضوع الأساسي في المقامات، وكانت وسيلة تعبيرية تُعبر عن الحالة المادية الرثة التي كانت تعاني منها الطبقة المثقفة، حيث إن الأدب كان لا يجدي نفعاً مع تدهور الحالة الاقتصادية والاجتماعية السائدة آنذاك.[11]

وربما كان فن المقامات فناً ملازماً للحياة العامة، لاسيما الكدّاة، فهو يرصد طرائق عيشهم وسبل حيلهم في سبيل التمويه على الناس من أجل التكسب. فمن العادات التي رُصدت في المجتمع العباسي، وكان أكثرها انتشاراً، عادة الكدية بين أبناء الطبقة العامة في ذلك العصر, ولا غرابة في ذلك، كون المجتمع الذي عاش فيه كل من الهمذاني والحريري هو مجتمع النصف الثاني من القرنين الرابع والخامس الهجريين.

وبطل المقامة يكون أبو الفتح الإسكندري أو أبو زيد السروجي, وهو نموذج للمثقف المهمش الذي لم يجد في العلم والأدب وسيلةً للرزق، فجعل من لغته وسيلةً للاحتيال والارتزاق. [12]

تكشف لنا المقامات قضيةً مجتمعية، وهي اتساع الفجوة بين السلطة والشعب، حيث يضطر الأديب إلى اللجوء إلى الحيلة للعيش، مما يشير إلى بطالة المثقفين في القرن الرابع الهجري.

---

[8] مقامات بديع الزمان الهمذاني، 42,41,40,39,36

[9] مقامات بديع الزمان الهمذاني، 115.

[10] مقامات بديع الزمان الهمذاني,266-267.

[11] ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص 24.

[12] ينظر: المقامات نشأتها وتطورها، عبدالفتاح لاشين , ج2، 112.

2- نقد السلوكيات الاجتماعية والبرجوازية: ناقشت المقامات بجرأة أخلاقيات المجتمع العباسي، خاصة في المدن الكبرى مثل بغداد والبصرة وأصفهان. فقد قدم الهمذاني نقداً لاذعاً لطبقة الأغنياء الجدد الذين يتباهون بممتلكاتهم وتفاصيل بيوتهم وموائدهم دون مراعاة لمشاعر الفقراء.[13]

كذلك ترصد المقامات ظاهرة النفاق الاجتماعي، حيث يظهر بطل المقامة في زي الزاهد الورع في المساجد، ليجذب عطف الناس، بينما هو في الحقيقة محتال بارع، مما يعكس اهتزاز المنظومة الأخلاقية في بعض الأوساط.[14]

3- التنوع العرقي والصراعات الشعوبية: عكست المقامات التعددية العرقية عرب، فرس، روم، أتراك، التي سادت في المجتمع العباسي، فالصراع الثقافي يُظهر في المقامات الاعتزاز باللغة العربية كأداة للهوية في مواجهة الشعوبية. بطل المقامة استخدم فصاحته ليثبت علو كعبه الثقافي في بيئات جغرافية متنوعة، من نيسابور إلى البصرة.[15]

المقامات العباسية لم تكن مجرد فن للاستمتاع بالسجع والبديع، بل كانت وثيقة اجتماعية وأدبية أدانت الفساد الإداري ورصدت معاناة الفقراء، وانتقدت تصرفات الأغنياء الفاحشة. فقد نجح الهمذاني والحريري في تحويل اللغة إلى سلاح للمقاومة الاجتماعية وتعرية الواقع المرير تحت قناع الفكاهة والسخرية.[16]

في هذا القرن الرابع الهجري المكتظ بضجيج الأسواق وزخارف القصور، تنبثق المقامة كمرآة عاكسة لشرخ عميق في بنية المجتمع، إنهُ النفاق الاجتماعي الذي لم يعد خُلقاً مذموماً فحسب، بل صار نظاماً يسير العلاقات.

حين أتأمل في نصوص بديع الزمان أجد أن النفاق قد تلبس بلبوس المادية، فالمضيف في المقامة المضيرية لا يدعوك إلى لتآكل، بل يدعوك لتنبهر بما يملك. إن استرساله في وصف الرخام ونقش السواري ليس إلا ستارة يخفي خلفها ضيق نفسه وبخل قلبه.

النفاق هنا هو أن تمنح الضيف كلاماً بدلاً من القِرى، وأن تستعيض عن دفء الترحيب ببرودة الاستعراض المادي, وعندما ننتقل إلى الحريري يتغير لون النفاق ليصبح أيديولوجياً ودينياً، فالسروجي بجعبته المهلهلة ودموعه المنهمرة في المساجد يمثل قمة التناقض البشري؛ لسان يقطر ورعاً، ويد تمتد بالخديعة. هذا النفاق السلوكي هو ما كشفت عنه المقامات كظاهرة مجتمعية، حيث صار المظهر الزهدي جواز مرور إلى القلوب والجيوب على حد سواء, لقد تنوعت مشارب الأدباء في رصد هذا الداء، فبينما كان ابن خفاجة البغدادي يشرح نفاق المجالس الأدبية وحسد الأقران، كان الزمخشري يحاول تقويم هذا الزيف بالنصح والوعظ, إنها صورة لمجتمع كان يغلي بحتولات متناقضة، حيث أصبحت الكلمة أداة للنفاق.[17]

كذلك نرى أن المقامة تأثرت بشكل عميق بالظواهر الطبيعية و البيئية التي عاصرتها فلم تنكفئ نصوصها داخل حدود الحيل اللغوية المحضه , بل انفتحت على رصد الطبيعة و تقلباتها من زوايا متباينة , و قد تراوح هذا الرصد بين تسجيل مظاهر البهجة و تجدد الحياة في الحقول و البساتين , و بين توثيق الكوارث الطبيعية و الأزمات البيئية كالسيول , و الأمطار الجارفة, والبرد الشديد , و غيرها الكثير من الظواهر. [18]

إن توظيف الظواهر الطبيعية في المقامة كان يحمل دلالات سوسيولوجية و نفسية, إذ كان الأديب يتخذ من قسوة المناخ أو بهجته خلفية درامية تخدم حركة البطل (المكدي) و تبرر لجوءه الى الحيلة طلباً للمأوى أو الكسوه. [19]

نأخذ نموذج من مقامات الحريري وهي المقامة الحجازية أو المكية ((صَادفَ موسمُ الخيَفِ . معمعَانَ الصيّفِ . فاسْتظْرتُ للضَّرورةِ . بما يَقي حَرَّ الظّهيرةِ . فبيَنَماَ أنَا تَحْتَ طِرافٍ . مع رُفْقةٍ ظِرافٍ . و قَد حمَي وطيسُ الحَصبْاء . و أعشَى الهَجيرُ عَيَنْ الحِربَاءِ...)) [20]

ففي هذا النص من المقامة يصور لنا الحريري ظاهرة الحر و الهجير في فصل الصيف تصويراً فنياً حياً , مستعيناً بألفاظ توحي بشدة القيظ و قوة تأثيره, مما يبرز حضور الطبيعة في المقامات العباسية و دورها في إثراء المشهد السردي و إضفاء الحيوية عليه.

و نذكر نص من المقامة المضيرية للهمذاني , ((و قلبهُ التاجرُ عَلَى المَكانِ . و نقرةُ بالبنانِ . و عجمهُ بالأسنانِ . و قال : عَمرَ اللهُ بَغْدَاد فَما أجُودَ مَتَاعَهَا . و أظرَفَ صُنَّاعَهَا . تَأملْ باللهِ هذَا الخُوانَ . و انظُرْ إلى عرِض مَتْنهِ . و خفَّةِ وَزنهِ . و صَلاَبةِ عُودِهِ و حُسْنِ شَكْلَه...))[21]

---

[13]ينظر: شرح مقامات الحريري، الشريشي، 89.
[14]ينظر: صورة المجتمع العباسي بين الهمذاني والحريري، رندا دبوس، 256.
[15]ينظر: المقامات (دراسة موضوعية وفنية)، إيمان وهيب، 23-32.
[16]ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) ، الدكتور احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، 170.
[17]ينظر: المقامات: السرد والأنساق الثقافية، عبد الفتاح كيليطو، 89 , وينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، ص 256.
[18]ينظر: الفن و مذاهبة في النثر العربي , شوقي ضيف ,248.
[19]ينظر: المقامات(السرد و الأنساق الثقافية) , عبد الفتاح كيليطو , 53 – 57.
[20]مقامات الحريري , 112.
[21]مقامات بديع الزمان الهمذاني , 133 , 134.

و في هذا النص نرى أبرز الظواهر الاجتماعية التي يصورها النص و هي المبالغة في الترف و التفاخر بالمأكل و الأثاث و الأدوات المنزلية.

وكذلك نجد تصوير للظواهر الاجتماعية في نص المقامة المارستانية : ((حدثنا عيسى بن هشام قال : دَخَلتُ مارِستَانِ البَصرةِ و معِي أبُو داوُدَ المُتكَلمُ فَنَظرتُ إلى مَجنُونٍ تأخُذُني عَينُهُ و تَدَعُني...)) [22]

فهذا النص يشير الى وجود المارستان (المستشفى) بوصفها مؤسسة اجتماعية و صحية لرعاية المرضى و المجانين , و هو ما يعكس جانباً من الحياة الاجتماعية في العصر العباسي .

و تتجلى براعة من خلال توظيف الظواهر الاجتماعية و تحويلها الى عناصر فنية فاعلة داخل البناء السردي , و ذلك من خلال جعل التفاوت الطبقي مصدراً للمفارقة و الدهشة الفنية . فقد استثمر الفجوة بين طبقة الأغنياء و الفقراء المعدمين في صياغة مواقف ساخرة تكشف عن اختلال الواقع الاجتماعي , بحيث لا يظهر الفقر في المقامات بوصفهِ حالة خضوع بل بوصفهِ دافعاً لتجاوز القيود الاجتماعية و كسر الانماط السائدة في المجتمع. [23]

نأخذ نموذج من احدى مقامات الهمذاني و هي (المقامة البغدادية) :((أَشْتَهِيتُ أَلازَاذً, وَأَنَا بِبَغْدَاذ، وَلَيْسَ مَعِي عَقْدٌ عَلَى نَقْدٍ...فإذَا أنَا بسَوَادِي يسُوقُ بالجَهْدِ حِمَارَهُ ... فقلتُ : ظَفِرْنَا واللهِ بِصيدٍ . و حياك الله أبا زيدٍ. مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ. وَأَيْنَ نزلت. وَمَتَى وَافَيْتَ؟... ثم أَتَيْنَا شَوَّاءً يَتَقَاطَرُ شِوَاؤُهُ عَرَقًا. وَتَتَسَايَلُ جُوذَابَاتُهُ مَرَقًا . فقلتُ: افْرز لأبي زَيْدٍ مِن هذَا الشِّواءِ. ثم زِنْ لَهُ من تِلكَ الحَلواءِ.))[24]

يوظف الأديب في هذا النص طبيعة المجتمع البغدادي ذي النزعة الاستهلاكية مجسد شخصية السوادي (أبي عبيد) القادم من الريف و الذي انبهر بمظاهر المدينة و جمالها , حيث يصوغ أبو الفتح الإسكندري حيلة تقوم على استغلال نزعة الطمع و الفوارق الطبقية , و هذا يكشف عن براعة الأديب المقامي على توظيف البعد الاجتماعي و النفسي في بناء الحدث السردي.

يعتمد الكاتب في هذا النص على جمال الحياة الحضرية و مظاهرها البراقة إذ لم يكن الاحتيال لينجح لولا انبهار السوادي بأهل بغداد و رغبته في التشبه بهم و الانتماء لهم . و من خلال توظيف رموز الفضاء البغدادي مثل الأسواق و المآكل و اجواء المدينة , يكشف لنا الأديب عن هيمنة النزعة المادية على العلاقات الاجتماعية. [25]

وقد اتخذ الكاتب من ظاهرة النفاق الاجتماعي و تراجع القيم الأخلاقية في الاماكن العامة كالمساجد و المجالس وسيلة لكشف زيف المجتمع , فقد أدرك أدباء المقامات ميل العامة الى الانخداع بالمظاهر و الخطابات العاطفية , فاستثمروا شخصية البطل المحتال لتعري هذه السذاجة و فضح هشاشة المعايير التي تحكم العلاقات الاجتماعية.[26]

ونذكر الان نماذج من المقامات و من هذه المقامات (المقامة المَضِيريَّة) لبديع الزمان الهمذاني , جاء في نص المقامة :

))قال : دَعَانِي بَعْضُ التُّجارِ إلى مَضِيرةٍ و أنا بِبغْدَاد و لَزِمَنِي مُلاَزمةَ الغَرِيم . والكَلبِ لأصحَابِ الرَقِيمِ . إلى أن أَجَبتُهُ إليها و قمنَا فَجَعلَ طول الطريقِ يُثنِي على زوجَتِهِ. و يفديها بمهجتهِ. و يصف حذقها في صنعتها...و انتهينا إلى بابِ دارِه. فقال: هذِهِ دَارِي كَمْ تُقدرُ يا مَولايَ أنفَقْتُ على هذهِ الطاقةِ...و انظرْ إلى حذق النجارِ في صنعةِ هذَا البابِ...هُو ساجٌ من قِطعةٍ وَاحِدةٍ لا مأرُوضٌ و لا عفنٌ.))[27]

تعكس لنا هذه المقامة ظهور فئة اجتماعية انتهازية من التجار و الأثرياء الذين راكموا الثروات في ظل اختلال التوازن الاقتصادي , و قد اقترن هذا الغنى بالمبالغة في التفاخر و البخل , و حين انتشر الفقر بين عامة الناس . و قد جسد الهمذاني هذا التناقض من خلال شخصية التاجر الذي دعا أبا الفتح الإسكندري إلى تناول المضيرة لكنه انشغل باستعراض أمواله و ممتلكاته بدلاً من الوفاء بوعده و إطعامه.

و نذكر نموذج اخر من مقامات الهمذاني و هي (المقامة الرَّصَافِيَّة): ((فذكَرُوا أصحَابَ الفُصُوصِ. من اللصوصِ. و أهل الكَفّ و القَفّ. و من يَعْمَلُ بِالطفَ. و مَنْ يَحتَالُ في الصَّفَ. و منْ يَخنُقُ بالدَّف. و منْ يَكمُنُ في الرَّف. إلى أن يُمكِنَ اللَّف. و من يُبَدلُ بِالمسْحِ. و من يأخذُ بِالمَزحِ... و من نَومَ بِالبَنْجِ . أو احتَالَ بنِيرنجٍ. و من يَدلَ نَعْلَيْهِ. و من شدَّ بِحبْلَيْهِ. و من كَابَرَ بالسَّيفِ.))[28]

---

[22]المصدر نفسه , 141.

[23]ينظر: المقامات والتاريخ: قراءة في المنسي واليومي والمهمش، نادر كاظم ، 145 .

مقامات بديع الزمان الهمذاني , 71 - 72. [24]

[25]ينظر: المجتمعات الإسلامية في القرن الرابع الهجري من خلال مقامات بديع الزمان الهمذاني، شكري فيصل , 230 – 234

[26]ينظر:متلقي المقامة العباسية وبنيتها الاجتماعية، الدكتور علي جواد الطاهر , وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، .102

[27]مقامات بديع الزمان الهمذاني , 124 - 126.

[28]مقامات بديع الزمان الهمذاني , 182 - 184.

* مجموعات من العامة و المهمشين ظهرت في العصر العباسي . كانوا يجمعون بين التمرد الاجتماعي و اللصوصية و اشتهروا بالدهاء و القوة , عُرف بعضهم بـ (نبلاء اللصوص) لالتزامهم بقواعد أخلاقية , بينما عُرف آخرون بقطاع الطرق.

و في هذا النص ينفذ الهمذاني الى الأوساط المهمشة المنسية في المدينة العباسية فيصور جماعات اللصوص و العيارين و الشطار* التي افرزتها ظروف الفقر و البطالة , و يوضح كيف تحولت هذه الجماعات الى فئات منظمة و تمتلك خبراتها الخاصة بها , حتى اصبحت السرقة و الاحتيال اشبه بالحرفة القائمة بذاتها . و يصف لنا عيسى بن هشام اجتماع هؤلاء اللصوص و هم يتباهون بمهاراتهم في الاحتيال و اختراق النظام الأمني للمجتمع.

اما الان نذكر نموذج من مقامات الحريري و هي (المقامة البَصْريَّة) :

((و لستُ أبغي أعطيتكمْ. بل أستدعي أدعيتكمْ. و لا أسْألُكم أمْوالَكمْ. بل أستْنَزِلُ سُؤالَكُمْ... قال الَحارثُ بنُ همَامٍ: فَلَم يَزَل يُرددُها بصوتٍ رقيقٍ. و يَصلَها بزَفيرٍ و شَهيقٍ. حتى بَكَيتُ لبُكاء عيَنْيَه. كمَا كنُتُ منْ قبلُ أبْكِي علَيَه. ثم برَزَ إلى مسَجدِهِ . بوضُوءِ تَهَجدِهِ...حتى اسْتنَبتُ أنهُ التَحقَ بالأفْرَادِ. و أشْرِبَ قلبُهُ هَوَى الانْفِرادِ...))[29]

يكشف لنا الحريري في هذا النص من المقامة ظاهرة اجتماعية و هي النفاق الديني و الاجتماعي , حيث اصبحت المساجد و المجالس مجالاً يستغله المحتالون لاستدرار عواطف الناس و ذلك عن طريق إظهار الحزن و التقوى الزائفة . و بالتالي نرى المجتمع إما ان يكون منساقاً وراء هذه المظاهر الخادعة أو يكون متغاضياً عنها . فيصف الحارث بن همام دخول السروجي إلى مسجد البصرة متظاهراً بالبكاء و التضرع لكي يستميل عطف الحاضرين و يجمع منهم المال.

ونأخذ نموذج آخر من مقامات الحريري و هي (المقامة الصَّعْديَّة) :

((فقال الشيخُ: أيدَ الله القاضي. و عصمهُ من التغاضي. إن ابني هذا كالقلم الردي. و السيف الصدي. يجهلُ أوصافَ الإنصافِ. و يرضعُ أخلافَ الخلافِ. إن أقدمتُ أحجمَ. و إذا غربتُ أعجمَ. و إن أذكيتُ أخمدَ. و متى شويتُ رمدَ. مع أنّي كفَلتهُ مذ دبّ. إلى أنْ شبّ. و كنتُ لهُ ألطفَ من ربى و ربَّ. فأكبر القاضِي ما شكا إليهِ... ثم قالَ: أشهدُ أن العُقُوق أحدُ الثكْلَيَنِ .))[30]

تكشف هذه المقامة عن تراجع القيم الأخلاقية في الأسرة , التي تمثل النواة الأساسية للمجتمع . فقد صور لنا الحريري مأساة عقوق الوالدين و جحود الأبناء , و ما يرافقها من تفكك الروابط الأسرية و ذلك بسبب ضيق المعيشة و الطمع بالمال.

و يعرض ذلك من خلال مشهد شيخ يتقدم إلى القاضي شاكياً ابنه, موضحاً كيف تحولت علاقات البر و الرحمة الى نزاع تحكمه المصالح المادية.

و الان نذكر نص اخر من مقامات ابن ناقيا البغدادي وهي (المقامة الحادية عشر) :

((فَدَخَلْنَا حَانَةً قَدْ عُلِّقَتْ عَلَى بَابِهَا المُسُوحُ، وَتَصَاعَدَتْ مِنْهَا رَائِحَةُ النَّبِيذِ القَرِيحِ، فَإِذَا فِيهَا فُقَهَاءُ قَدْ نَزَعُوا عَمَائِمَهُمْ، وَأُدَبَاءُ قَدْ نَسُوا آدَابَهُمْ، وَكُلٌّ يَعُبُّ فِي الكَأْسِ عَبًّا، وَيَرَى المُرُوءَةَ هَبَاءً طَبًّا!.. فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: هَذَا مَحْفِلُ الزُّهَّادِ إِذَا خَلَوْا، وَمَجْلِسُ العُقَلَاءِ إِذَا ضَلُّوا !)).[31]

ينفرد ابن ناقيا بتصوير الجوانب المنفلتة في المجتمع البغدادي , إذ يسلط الضوء في هذا النص على نزوع بعض المثقفين و أفراد النخبة الى مجالس اللهو و الشراب , و قد صاحب ذلك تراجع للقيود الاجتماعية و الدينية . و يبدو أن هذا السلوك هو محاولة للتعبير عن السخط و اليأس الاجتماعي , او شكلاً من اشكال التمرد على الواقع . و من خلال وصف مجالس الشراب و المجون يكشف لنا الكاتب جانباً من التحولات التي شهدها المجتمع العباسي , تحول في قيم المجتمع.

و نرى ايضاً في نص اخر من مقامات الحريري و هي (المقامة التنيسية) حيث يوظف الحريري قدسية المسجد و ما يحيط به من هيبة دينية و ذلك ليكشف لنا عن سهولة انخداع المجتمع بالمظاهر التعبدية و الخطابات الوعظية المؤثرة . ففي ليلة ممطرة يظهر أبو زيد السروجي في مظهر الواعظ ,مستغلاً تعاطف الناس و التأثير في مشاعرهم لكي يستميلهم لتقديم المال و العون , فيصف الحارث بن همام هذا المشهد قائلاً :

((فلمّا فرَغَ من مُبكِياتِهِ. وقضَى إنشادَ أبياتِهِ. نهضَ صبيٌّ قد شدَنَ. وأعْرى البَدَنَ. وقال: يا ذَوي الحَصاةِ. والإنْصاتِ إلى الوَصاةِ. قد وعَيْتُمُ الإنشادَ. وفقِهتُمُ الإرْشادَ. فمَن نَوى منكُمْ أن يقْبَلَ. ويُصلِحَ المُستَقبَلَ. فلْيُبِنْ ببِرّي عنْ نِيّتِهِ... فأخذَ الشيخُ في ما يعطِفُ عليْهِ القُلوبَ. ويُسَنّي لهُ المطْلوبَ. حتى أنْبَطَ حَفرُهُ. واعْشَوشَبَ قَفْرُهُ. فلمّا أنْ ترِعَ الكيسُ. انصَلَتَ يميسُ. ويحمَدُ تِنّيسَ))[32]

---

[29]مقامات الحريري , 223,216.
[30]المصدر نفسه , 303.
[31]مقامات ابن ناقيا , 124 .
[32]مقامات الحريري ,334 - 335.

حيث يتخذ الكاتب من المجتمع محوراً لنقده , و ذلك بفضح مظاهر التدين الشكلي الذي ينخدع بفصاحة القول و هيئة الفقر و الزهد , و من غير أن يتحقق من حقيقة السلوك , و من خلال ذلك فهو يضع المجتمع في مواجهة تناقضاته , كاشفاً عن ميله الى العواطف و الخطابات المؤثرة , في حين يغيب الاهتمام بتحقيق العدالة الاجتماعية الحقيقية و معالجة أسباب الفقر. [33]

وتكشف القضايا المجتمعية التي تناولتها المقامات عن أن هذا الفن كان أشبه بمرصد رصد التحولات التي شهدها المجتمع , حيث انتقل من مرحلة الازدهار و التكافل الى مرحلة الازمات و الاختلالات و قد ادت هذه التحولات إلى انقسام المجتمع الى فئتين : فئة تمتلك المال و السلطة و تمارس مظاهر الترف و الفساد , و فئة تعاني من الفقر و التهميش فتلجأ إلى الحيلة و الانحراف بوصفها وسائل للتكيف مع الواقع القاسي و البقاء فيه.

الخاتمة

و في ختام هذا البحث نرى أن المقامات تمثل وثيقة أدبية و اجتماعية مهمة قد عكست لنا ملامح المجتمع في العصر العباسي , و ذلك بما شهده من تحولات و ظواهر مختلفة فقد استطاع الكتاب أي كتاب المقامات من تصوير ما كان يحدث في المجتمع من تفاوت طبقي و فقر و الكدية و الاحتيال , كذلك تصوير العلاقات الاجتماعية , ولم يكن هذا التصوير غاية في ذاته بل جاء وسيلةً للنقد و الإصلاح و الدعوة إلى التمسك بالقيم الأخلاقية و الفضائل .

كما يبين لنا البحث أن المقامة لم تقتصر على الجانب الفني و الجمالي فقط , بل اضطلعت بوظيفة اجتماعية , إذ سخرت وسائلها من اجل اثارة وعي المتلقي و تقويم السلوك , والتنبيه إلى مواطن الخلل في المجتمع .

ومن ثم، فإن القضايا المجتمعية التي تناولتها المقامات تؤكد عمق صلتها بواقع عصرها، وقدرتها على تجاوز حدود الإمتاع إلى أداء رسالة اجتماعية وثقافية، الأمر الذي يجعلها مصدرًا مهمًا لفهم الحياة الاجتماعية في العصر العباسي، واستجلاء القيم والأفكار التي سادت ذلك العصر.

المصادر

عبد الله، أ. (2005). المقامات في الأدب العباسي (ط. 1). دار الآفاق العربية.

مرتاض، ع. م. (1983). فن المقامات في الأدب العربي (ط. 2). ديوان المطبوعات الجامعية.

الشريشي، أ. ا. أ. ب. ع. ا. م. ا. ق. (1998). شرح مقامات الحريري (إ. شمس الدين، محقق، ج. 1، ط. 1). دار الكتب العلمية.

الهمذاني، أ. ا. أ. ب. ا. (2005). مقامات بديع الزمان الهمذاني (م. عبده، مقدم وشارح، ط. 3). دار الكتب العلمية.

ضيف، ش. (1983). الفن ومذاهبه في النثر العربي (ط. 11). دار المعارف.

لاشين، ع. ا. (1984). المقامات: نشأتها وتطورها وأغراضها (ط. 1). دار المريخ.

كاظم، ن. (د.ت.). المقامات والتاريخ: قراءة في المنسي واليومي والمهمش. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

كيليطو، ع. ا. (2001). المقامات: السرد والأنساق الثقافية (ط. 2). دار توبقال للنشر.

وهيب، إ. (2004). المقامات: دراسة موضوعية وفنية (ط. 1). مجدلاوي للنشر والتوزيع.

دبوس، ر. (1994). صورة المجتمع العباسي بين الهمداني والحريري (ط. 1). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

عباس، إ. (1983). تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري (ط. 4). دار الثقافة.

الباز، ع. أ. (1978). مقامات الحريري. دار الباز للنشر والتوزيع؛ دار بيروت للطباعة والنشر.

فيصل، ش. (د.ت.). المجتمعات الإسلامية في القرن الرابع الهجري من خلال مقامات بديع الزمان الهمذاني. دار العلم للملايين.

[33] ينظر: المقامات: دراسة في النشأة والتطور والوعي الاجتماعي، حسين نصار , دار مصر للطباعة، القاهرة، 198.

الطاهر، ع. ج. (د.ت.). متلقي المقامة العباسية وبنيتها الاجتماعية. وزارة الثقافة والإعلام.

البغدادي، أ. ا. ع. ب. ا. (د.ت.). مقامات ابن ناقيا (م. التونجي، محقق). دار المناهل.

نصار، ح. (د.ت.). المقامات: دراسة في النشأة والتطور والوعي الاجتماعي. دار مصر للطباعة.

ابن منظور، ج. ا. م. ب. م. (د.ت.). لسان العرب (مج. 1). دار صادر.

ابن منظور، ج. ا. م. ب. م. (2004). لسان العرب (مج. 12). دار صادر.

مجمع اللغة العربية. (2004). المعجم الوسيط (ط. 4). مكتبة الشروق الدولية.

السيوطي، ج. ا. (1989). شرح مقامات جلال الدين السيوطي (س. العروبي، محقق، ج. 1، ط. 1). مؤسسة الرسالة.

عتيق، ع. ا. (1976). الأدب العربي في الأندلس. دار النهضة العربية للطباعة والنشر.